

عصمة الأنبياء في القرآن الكريم

(289) لا لقاء الكتاب عليه وإن كان الاستثناء متصلًا، وهذا الوجه بعيد أيضًا لكون المستثنى منه محذوفًا مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر، وإنَّما يصار إليه إذا لم يصح إرجاعه إلى نفس الجملة الواردة في نفس الآية كما سيبيِّن في الوجه الثالث. 3. أن يكون "إلا" استثناء من الجملة السابقة عليه، أعني قوله: (وما كنت ترجوا) ويكون معناه: ما كنت ترجوا إلقاء الكتاب عليك إلا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك، فتكون النتيجة: ما كنت ترجو إلا على هذا (1) فيكون هنا رجاءٌ منفي ورجاءٌ مثبت أم لا ولا: فهو رجاؤه بحادثة نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية، فلم يكن ذاك الرجاء موجوداً، وأم لا رجاؤه به عن طريق الرحمة الإلهية فكان موجوداً، فنفي أحد الرجاءين لا يستلزم نفي الآخر، بل المنفي هو اللا ولا، والثابت هو الثاني، وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية، وقد سبق منذ أن جملة (ما كنت) وما أشبهه تستعمل في نفي الإمكان والشأن، وعلى ذلك يكون معنى الجملة: لم تكن راجياً لأن يلقى إليك الكتاب وتكون طرفاً للوحي والخطاب إلا من جهة خاصة، وهي أن تقع في مظلة رحمته وموضع عنايته فيختارك طرفاً لوحيه، ومخاطباً لكلامه وخطابه، فالنبي بما هو إنسان عادي لم يكن راجياً لأن ينزل إليه الوحي ويلقى إليه الكتاب، وبما أنَّهُ صار مشمولاً لرحمته وعنايته وصار إنساناً مثالياً قابلاً لتحمل المسؤولية وتربية الامم، كان راجياً به، وعلى ذلك فالنفي والاثبات غير واردين على موضع واحد. فقد خرجنا بفضل هذا البحث الصافي أنَّهُ (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إنساناً مومناً موحداً عابداً ساجداً له قائماً بالفرائض العقلية والشرعية، مجتنباً عن المحرمات، عالماً بالكتاب، ومومناً به إجمالاً، وراجياً لنزوله إليه إلى أن يُعثَ لا نقاذ البشرية _____ 1 . مفاتيح الغيب: 498|6.